الوحدة

قصة بقلم مصطفى فريد

هناك في ركن ما من مكتبي ، نسخة قديمة مهترئة من رواية بروست « طريق سوان » : ينبغي البحث عنها ، واعادة قراءتها ، خاصة تلك الاجزاء التي تتناول علاقة سوان باوديت : هذه التحليلات النافذة للحب ، والكراهية ، والغيرة هي املي الوحيد في اجتياز هذه الازمة. لا ينبغي للعقل ان يستسلم امام العاطفة . وبالوعي يمكن للمرء ان يدرك موقفه ، ومن ثم يتجاوزه ، وهذا ، في حد ذاته ، ضرب من الانتصار ..

افتح عيني لاجد العتمة وقد شاعت في الغرفة فجاة ، لا بد اني تاخرت في النوم . امد بصرا كليلا الى المنبه القائم على التسريحة في اخر الغرفة ، ولكني لا ارى شيئا . كانت نومة محمومة ، تعمرها خيالات هاذية ، واغلب الظن ان الصبح سيجدني مريضا . آليةقديمة، ومكرورة ، من آليات الدفاع . ولم يجهدني شيء قدر هذه السورة التي جعلتني اتخيل اني احاول ادارة اسطوانة تحمل اسمها على الجراموفون ، ولكني ، في كل مرة ، كنت افشل في ان اتبين ما اذا كانت الاسطوانة الموضوعة تحمل اسمها ، او اسما اخر . لوعة حقة ، وتوق لا يعرف الراحة . وهذا الحلم ـ اليقظة ليس بالعصي على التفسير : فقد حدث ابدال ، وانما الذي يعذبني رغبتي فيان اعرف : اهو اسمي ام اسمه ؟ اكتمل المثلث الابدي ، وغدونا نصلح نموذجا لقضية فرنسية تقليدية : وها قد صار علي ان اتخذ قرارا ، او اقوم بخطوة حاسمة اعرف اني آخر من يصلح للقيام بها . عند هذا الحد يمكن القول بأن قصتي كوميدية ، وانها تخلو من اي جلال تراجيدي ، وانما هي تقوم على سوء تفاهم ، وعلى الباس رجل ثوبا لا يلائمه، وذلك لا لشيء الا لان الجمهور يتوق الى الجليل ، ويتوقع مني ، في ثوبي العصري ، ان اعيد لعب ادوار المآسي .

كانت الساعة في الحقيقة قد جاوزت السادسة ، وقد ادركت ذلك حين اضأت المصباح واستخرجت النظارة من درج المكتب ، لكي استطيع ابصار المنبه : اذن اكون قد نمت اكثر من اربع ساعات ، فقد اخلدنا الى الفراش في تمام الثانية . لا عجب ان يستغرق فعل الحب مثل هذا الوقت الطويل ، فان النبضة المقدسة التي ينبثق منها فعل الخلق ينبغي ان تدور دورتها الكاملة : تمهيد واعداد ثم بلوغ لذروة اللذة ، ثم نزول عنها . وهذا كله يستغرق وقتا . لا ينبغي تعجل الامور ، وانما يجب ان يسير كل شيء في مجرا هالطبيعي ...

كنت في الجامعة حينما قرأت بروست لاول مرة ، وتناقشت فيه مع احد اساتذتي . ورغم اني كنت احبه واحترم رأيه ، الا اني كنت على يقين من انه تنكب جادة الصواب عندما وصف عمل بروست بانه من نتاج ذهن مريض ، لا يقدم سوى عرض هزلي ـ مأسوي لشخصيات شاذة ، منحرفة ، ذات عواطف سقيمة . وكان أعجابي ببروست نذيرا بالدرب الذي ستتجه اليه ميولي . غدوت ، عن وعي ، حاملا لراية الاستبطان ، او الاستمناء العقلي كما يسميه محقروه ، ولاح لي ان مراقبة الذهن لذاته في عملياته العقلية ، وتوهماته وخيلاته ، هي الواجب الاسمى على كل فنان ..

وقد كان من المفروض ، حسب ما يقوله الشعراء ، أن يخلق الحب الانسان خلقا جديدا ، وأن يبلغ به أعلى عليين ، ولكني أجد الآن نفسي ، بعد ممارسته ، كومة متدآعية في سرير أجهدتها الخيبة ، ولم تترك في فمها غير مذاق الرماد . وألقي ببصري الى نصف السرير الخالي ، وقد تجعدت ملاءاته وألقى المصباح عليه مزيدا من النور والظل ، فلا أدري الى أين ذهبت ، ولا كيف انقضى هذا الاصيل . وأغمض عيني متعبا ، فقد عانيت اليوم بما فيه الكفاية ، وينبغي أن ادخر شيئا من قوتي لمواجهة الايام القادمة ..

في الصباح دخلت المدرج ، كما أفعل كل يوم ، وكان موضوع محاضرتي هو : الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر . كانت محاضرة ناجحة تماما ، وحالتي المعنوية مرتفعة ، رغم اني أحمل في جيب جاكتتي خطابا يقول ان زوجتي تخونني ، كان الفراش قد أحضره لي ، في الفترة الفاصلة بين المحاضرات ، وأنا جالس الى مكتبي أشرب القهوة . وكان الخطاب وجيزا : « زوجتك تخونك مع مهدي صديقك . خذ بالك . فاعل خير » . وفي مبدأ الامر لم أتلق أي صدمة . كنت ، على نحو من الانحاء ، أعرف ذلك : فقد طالما تخيلتهما معا ، حتى لم أعد أستغرب آن يتحول هذا الخيال الى حقيقة . وحين عدت الى البيت وتناولت معها الغداء ، رحت أسترجع في هدوء هذه الكلمات ، وأطبقها على الجالسة في مواجهتي . وحين دخلنا غرفتنا ، واغلقنا بابها علينا ، شعرت بأنني أطأ حرما لا حق لي في دخوله لانها في شرعة الحب الاعظم قد وهبت مفتاحه لمن تهواه ..

والآن تلوح لي الفقرة السابقة آية في الابتذال ، ولا يصعب علي أن أدرك ان قصتي تنحدر عن مستواها ، وانني أغدو ، في أسوأ احوالي ، حين اتناول الواقع . خير لي آذن أن اضرب صفحا عن هذه القصة ، وأحاول نسيان ذاتي في شيء لا شخصي ، أكبر قيمة .. وهكذا أثبت ناظري على لوحة « الوحدة » لجيورجيو دي كيريكو ، التي علقتها على الحائط في مواجهة السرير ، رغم اعتراض السيدة . كانت تقول انها لوحة سخيفة ، ولا تعني شيئا ، ولكني كنت أستريح الى ذلك التمثال المرمري الذي يتوسطها ، مضطجعا على قاعدته ، ومن ورائه البواكي ، وذانك الشبحان يرميان بظلالهما المتطاولة على الارض . كانت اللوحة تحدث لي نوعا من التطهير ، وترضي نزوعي الى المطلق . والآن وأنا أتأملها ، يتناهى الي صوت التلفيزيون آتيا من حجرة الجلوس ، فلا أشك في ان السيدة هناك ، مشتملة بالروب دي شامبر الابيض على اللحم ، رغم انها في أواخر ديسمبر ، وقد وضعت ساقا على ساق ، وراحت تتطلع الى الشاشة وهي تجيل الملعقة في فنجان الشاي على مهل بعد فعل الحب ، وكنت أجد في ذلك حيوانية فظة تصدم ذوقي ، وتصورتها تصنعه لهدي ، فلاح لي انه قد كان بحيث يستطيب ذلك ، ولم املك الا أن احسدهما على مقدرتهما على الاستمتاع بهذه البسائط .

هاأنذا مثل شخوص أوفيد المتحولة ، أرتدي عدة أثواب ، وألعب عدة أدوار في آن واحد ـ دور الاستاذ الجامعي الذي يعشقه طلابه وطالباته ، دور الزوج المطعون في شرفه الذي تخونه زوجته مع أحد أصدقائه ، دور الكاتب المشهور شهرة سيئة في أوساط المثقفين بأنه انعزالي ، ورجعي ، ومؤمن بمذهب الفن للفن ، دور الجنس المثلى الذي لن يخرج بميوله هذه ، قط ، عن دائرة الاحلام . ومن بين هذه الاوجه لن يهتم المجتمع الا بمسألة الزوج المخدوع، لانها الاكثر تشويقا.

وأنقلب في الفراش طالبا الدفء ، ومحكما لف البطانية حولي ، ثم أطفيء المصباح فتسبح الغرفة في الظلام ، وأكاد أستشعر السعادة لاني مررت ، في الساعات الماضية ، بجنون الالم المتقلب ، ثم غدوت الآن مستريحا أتأمل الموضوع ، في ضوء عقلي خالص . ان الحب ، كما يقول بروست ، وهم من خلق المخيلة ، ونزوع ذاتي صرف . فالمرأة التي نحبها ليست مخلوقا كائنا فعلا بقدر ما هي اسقاط لاشواقنا ورغائبنا التي لن تعرف التحقق قط ، انها مجرد مناسبة لتحقق هذه الاشواق ، ومطالبتها بالوفاء لن تؤدي لغير الالم . فالحب معادلة وجدانية قادرة على عدد لا حصر له من التدرجات والفروق الدقيقة ، ولكن المعاناة تظل هي الحد النهائي لهذه المعادلة . والعاقل من حسب حساب اللذة والالم ، وخرج من هذه العاطفة بلذة لا تنغصها الشكوك.. وما دمت قد وصلت الى هذه الدرجة من الصفاء ، فليس ثمة ما يدعو الى أن أستمر في الكتابة : لقد تحدثت عن نفسي بما فيه الكفاية ، نرجس في مرآة ذاته ، واني لاستطيع أن أرى بوضوح ان الشخصين الآخرين اللذين يكونان ، معي ، ضلعي المثلث ، قد ألقيا في منطقة الظل ، ولم ترسم لهما أي صورة واضحة . لا ضير ، فانهما لا يهمان الا بقدر ما يرتسمان على شاشتي السيكولوجية ، وقيمتهما الموضوعية لا تعدو انهما كانا الشرارة التي أطلقت هذه السلسلة من التأملات ..

أقوم الى النافذة ، وأزيح الستارة ، ملقيا ببصري الى الشارع شبه المهجور : المصابيح تلمع في وحدتها الليلية ، وأنوارها تنعكس على الاسفلت المبلول بماء المطر ، وثمة ريح تهز أشجار الجزورينا الممتدة على طول الشارع . واضطجعت ، في ردائي المرمري ، وحيدا مع الواحد ، ارمق بنظرة محايدة هذين الشبحين اللذين يرميان بظلالهما المتطاولة على الارض .